دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	اللغة والفكر بين علم النفس وعلم اللسانية
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر
الناشر:	مركز الإنماء القومي
المؤلف الرئيسي:	بركة، بسام
المجلد/العدد:	ع 18,19
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1982
الشهر:	مارس
الصفحات:	65 - 71
رقم MD:	431807
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التحليل النفسي ، علوم اللغة ، اللسانيات ، علم النفس ، علماء النفس ، بياجيه، جان، 1896-1980، علماء اللغة ، وسائل الاتصال ، اللغة
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/431807

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

د.بسام بركة

اللغة والفكر
بين علم النفس وعلم اللسانية

اللسانية علم حديث نشأ مع دوسوسّور (Ferdinand de Saussure) في أوائل القرن العشرين وتطور بسرعة مذهلة تحت تأثير تيارات فكرية مختلفة اهمها فلسفة البنائيّة . ويعرّف اللسانية علماؤ ها بأنها علم يهدف الى دراسة اللغة دراسة موضوعية ووصفية . ولما كانت اللغة تدخل في أصل معظم العلوم الانسانية اما كعنصر اساسي في ميدان البحث (كالتحليل النفسي والعلوم الاجتماعية) أو كأداة يتحتم استعمالها في التعبير عن معطيات هذا العلم أو ذاك ، فقد تداخلت مفاهيم اللسانية في معظم العلوم الانسانية ونشأ عن التأثير المتبادل بينها تيارات فكرية وعلمية حديثة كعلم النفس اللساني(او سيكولوجية اللغة) (Psycholinguistique) او علم الاجتماع اللساني (Sociolinguistique) .

وعلاقة اللغة بالفكر شغلت حيزاً كبيراً من اهتمامات علماء اللسانية ودراساتهم ، سيا وان هذه العلاقة كانت ـ وما تزال ـ أحد المحاور التي يتناولها علماء النفس بالدراسة والتحليل .

ومن الممكن ترجمة التساؤلات العديدة التي دارت حول عمل اللغة والفكر وعلاقاتهما بهذين السؤالين :

أ ــ هل من الممكن ان نميز بين عملين : عمل الذهن واستنباط الفكرة على حدة ، وعمل يجاريه او يتبعه يضع الفكرة في قالب لغوي محدد ؟

ب ــ أم ان هناك عملا واحدا يضم فكرة واحدة تتحقق في لسان معين ؟

١ ـ العلاقات المتبادلة بين اللغة والفكر على ضوء علم النفس

اتجه العلماء في اجابتهم على هذين السؤالين نحو دراسة نفسية الطفل وتطور ملكة الكلام عنده . فتناولوا دراسة تعلم اللغة عند الطفل بالمقارنة مع نمو سلوكه العام وخاصة مع تكوين فكره ودلائل تطوره . كما اهتموا بتحليل سلوك الاطفال الذين لم يتعلموا لغة انسانية قط (كالاولاد الذين عاشوا في الغابات بعيداً عن أي مظهر من مظاهر الحياة الانسانية) أو الذين تأخروا لسبب او لآخر في تعلمهم لغة مجتمعهم (كالأولاد الصم البكم مثلاً) .

(١ ــ ١) اذا اطلعنا على اعمال بياجيه (Jean Piaget) الكثيرة في علم النفس ـ وخاصة في علم نفس الطفل ـ لاسترعى انتباهنا الحيز الضيق الذي تشغله فيها اللغة والكلام . فهو نادرا ما يتناول بالتحليل « السلوك اللغوي » لذاته . وكتبه ومقالاته التي يدرس فيها قضايا اللغة تبحث بمجملها علاقات هذا السلوك بالفكر أو ـ بوجه عام ـ علاقاته بتطور الادراك والمعرفة عند الطفل . وهذا ما يتصل مباشرة بموضوعنا .

ينطلق بياجيه في كتاباته من معطيات ضمنية تؤمن بالعلاقة القوية بين التفكير والتكلم . فلغة الطفل تكون بالنسبة له المؤشر المثالي للعمليات الفكرية كما تترجم بطريقة مباشرة اوالية الذكاء . يقول بياجيه : « لكي نفهم منطق الطفل ، يكفي البحث في ميدان الحوار عنده أو في تصرفاته الكلامية »[١] .

مثالاً على ذلك ، يبني بياجيه نظريته الشهيرة في مرحلة **الأنانية** (égocentrisme) على ملاحظة كلام الطفل في هذه المرحلة وهو كلام يتمحور حول « الأنا » ولا يأخذ الطفل فيه بعين الاعتبار وجود « الآخر » (السامع لكلامه) . فالطفل « يردد كلمات لمجرد لذة الكلام ، دون أن يهتم بتوجيه كلامه لأحد أو دون ان يهتم بلفظ كلمات ذات معنى . . . ان الطفل يتكلم لنفسه وكأنه يفكر بصوت عالٍ »[٢] .

ليست اللغة عند بياجيه مجرد دليل على نفس الطفل وعقله ، بل انه يعدّها من اهم « الوظائف الرمزية » التي يتعامل بواسطتها الانسان مع محيطه المادي والاجتماعي . وبالرغم من انه يعطي البنيان العقلي مركز الصدارة بالنسبة للبنيان اللغوي ، فان اللغة في نظره تساعد في تطور الادراك

عند الطفل (دون ان تكون في اساس خَلْقه بالطبع) . فاذا سلمنا بأن الطفل يواجه في سني حياته الأولى العالم الخارجي ويتفاعل معه ، لقلنا ان اللغة تكون مادة معقدة تُنبّه ذهنه وتغذي فيه روح التطلع وقوة الادراك .

(١ ــ ٢) في الواقع ، لا نجد عند بياجيه تحليلاً دقيقاً لموضوع تأثر ذهن الطفل وذكائه بتعلم لغته الأم . ويعود الفضل في دراسة هذا الموضوع الى العالم الروسي فيكوتسكي (Vygotski) . يحلل هذا العالم تطور تفكير الطفل بالمقارنة مع قدرته على الكلام ، فيتفق مع بياجيه في ان الفكر عند الطفل هو انفتاح على العالم الخارجي وامتلاك للواقع ومحتوياته . فالفكر عنده يسبق امتلاك اللغة ، وينطلق بادىء الامر في خط يختلف عن خط اللغة . ولكن سرعان ما يتحد خطّا تطور اللغة وتطور الفكر في عملية واحدة ، وذلك ـ كما يقول فيكوتسكي ـ في سن مبكرة جداً (عندما يبلغ الطفل حوالي السنتين) . ويعدّ فيكوتسكي هذا الاتحاد بمثابة نقطة انطلاق وتحول في حياة الطفل النفسية والذهنية كما يعتبره الصفة الأساسية التي يتميّز بها الانسان عن سائر المخلوقات . ففي السنة الثانية من عمره ، يكتشف الطفل الأشياء التي تحيط به من خلال الأسماء التي يطلقها عليها . وتنمو علاقته بالعالم الخارجي بتعلمه المفردات التي تدل على محتوياته . فالكلمة بالنسبة لفيكوتسكي لا تعبّر عن الفكرة ، بل ان الفكرة تولد في الكلمة [٣] .

(١ ــ ٣) ومما يؤكد تأثير اللغة على تطور الفكر عند الانسان حالات الأولاد الذين عثر عليهم في الغابة والذين لم يتلقوا أية لغة بشرية في سني حياتهم الأولى . يقول كاينز (Kainz) انّ الانسان الذي يحرم نعمة اللغة في طفولته لا يصبح قاصراً فكرياً فحسب بل انه لا يستطيع أن يرى العالم الخارجي على الصورة التي نراه نحن عليها : فالعالم بالنسبة له عبارة عن خليط لا نظام له من الصور والانطباعات[٤] .

(١ ــ ٤) ونجد أيضاً في هذا الوضع نفسه الانسان الذي ينفصل عن المجتمع البشري انفصالاً تاماً فتنقطع الصلة اللغوية بشتى وسائلها بينه وبين أخيه الانسان . ونستشهد بالروائي الفرنسي المعاصر تورنيه (Michel Tournier) الذي نال جوائز عدة في العقدين الماضيين والذي يعتبر من افضل من تمثّل نظريات علم النفس والتحليل النفسي وطبقها في رواياته . كتب هذا الروائي قصة « جمعة » (Vendredi ou les limbes du pacifique) التي يمثّل بطلها : « روبنسون كروزويه القرن العشرين » لقد نجا روبنسون من الغرق بأعجوبة ووجد نفسه وحيداً في جزيرة صغيرة . ولم تمض اسابيع حتى اتضح له ان وعيه للعالم بدأ يذوي مع الكلمات التي ينساها . يكتب روبنسون في يومياته :

« انني اطلب بإلحاح ان يكون كل ما حولي مقاسا ومثبتاً وحسابياً ومنطقياً . . .

« لن اتوانى عن العمل حتى تتحول هذه الجزيرة الكمداء الغامضة المليئة بغليان اصم وهيجان شرير ، الى انشاء تجريدي ، شفاف ، واضح المعالم . . .

« عبثاً اخفي الأمر على نفسي : ان ذهني بكامله يترنح . وما تلفُ اللغة عندي الاّ من تآكل ذهني .

« لقد تكلّمت بصوت عال ، لم اترك ملاحظة أو فكرة الاّ وكلمت بها الاشجار والغيوم : ولكن دون جدوى . إنني أرى جوانب كاملة من قلعة الكلام التي يختبىء فيها فكرنا ويتحرك ، تنهار يوماً بعد يوم . وها أنا الآن تساورني الشكوك حول معنى الكلمات التي لا تعبّر عن اشياء مادية . فأنا لا أقوى على التكلم الاّ حرفياً »[٥] .

وهكذا توضح تجربة روبنسون مدى قوة الكلمة وممارستها في بناء حياة الانسان الفكرية والنفسية والاجتماعية .

(١ ــ ٥) وقبل ان ننتهي من هذا الموضوع نعود الى ما يقوله علم النفس في **الطفل المعاق** منذ ولادته . لقد اثبتت الدراسات التي دارت حول الأولاد الذين لا يستطيعون تعلم لغتهم الأم أن الولد الذي يحرم ملكة التكلم في صغره والذي لا يتلقن نظاماً للاتصال بديلاً عن اللغة (كاللمس بالنسبة للأعمى ـ الأصم ، والحركات بالنسبة للأصم الأبكم) ، فانه محكوم على فكره بالقصور ولن يستطيع أن يجاري أخاه الطبيعي في نموه الذهني[٦] .

(١ ــ ٦) وصفوة القول أن الاضواء التي يلقيها علم النفس على ميّزات العلاقة التي تربط نمو فكر الانسان بلغته تبين ما يلي :

أ ــ من المؤكد ان العلاقة بين اللغة والفكر علاقة متبادلة وقوية .

ب ــ تعتبر اللغة الوسيلة المثلى لتوسيع مدارك الطفل ووعيه ، بما تختصّ به من رمزية (تمثيل الأشياء المادية والمجردة برموز) وتركيب معقد (اللغة نظام ذو قواعد وقوانين غاية في الدقة) .

ج ــ لا يقتصر دور اللغة على كونها أداةً تنقل الأفكار أو تعبّر عن الانطباعات (كالسيارة تقل الركاب من مكان الى مكان) ، بل هي مخاض الفكر وصيرورته . يقول فيكوتسكي ان الفكر لا يتبلور ولا يجد كماله الاّ باللغة ومن خلالها[٧] .

د ــ ان الفكر التجريدي الذي يتحلّى به الانسان يجد في الكلمة منطلقاً وميداناً ، وذلك بفضل علاقتها المجردة بالشيء الذي تدل عليه (كما سنرى) .

هـ ـ ليس الترتيب الذي نتصوره في العالم الخارجي الآ وليد عاداتنا اللغوية . اذ ان الدور الأساسي الذي تلعبه في حياة الانسان يكمن في تنظيم معرفتنا بالعالم الخارجي وتفاعلنا مع مكوناته . يقول المفكر واللغوي وورف (Whorf) : « اننا نجزّىء الطبيعة وفقاً لتوجيهات تضعها لغتنا الأم . . . ان العالم يظهر لنا في صور وانطباعات مختلفة الأشكال والألوان ، وهي صور وانطباعات يرتبها فكرنا وينظمها الى حد كبير بواسطة قوانين اللغة التي يستعملها »[٨] .

٢ ـ علم اللسانية ووصف اللغة

يتضح مما تقدم ان اللغة لا تحظى باهتمام علماء النفس الآ فيما يتعلق باختصاصهم ، أعني تحليل النفس البشرية ودراسة عمل الفكر واواليته . ذلك بالرغم من انهم يشهدون بقوة فعل اللغة في تكوين مدارك الطفل وبناء تفكير الانسان .

أمّا وجهة النظر المقابلة لهذا الموقف والتي اذ تتطرق لموضوع الفكر فمن خلال وصف اللغة ؛ فيتبنّاها علم اللسانية الذي يحلل اللغة وأقانينها تحليلاً موضوعياً لا يبغي املاءً لقواعدها ولا تصحيحاً لاستعمالاتها .

(٢ ـ ١) الاشارة اللغوية ونظرية الدال والمدلول

يتفق اللسانيون مع سوسّور على ان اللغة تتألف من إشارات (او علامات Signes) . والاشارة كيان نفسي ولا وجود لها الا في ذهن الانسان . وهي عبارة عن اتحاد عنصرين لا فاصل بينهما : الدال (Signifiant) والمدلول (signifié) . الدال هو الصورة الصوتية التي تنطبع مباشرة في ذهن السامع . وهو بعبارة اخرى الادراك النفسي للكلمة الصوتية . أما المدلول فهو الفكرة التي تقترن بالدال . نأخذ مثالاً على ذلك الاشارة اللغوية « ثور » : الدال هو الصورة الذهنية لسلسلة الأصوات المتتالية / ث / ، / و / ، / ر / . والمدلول هو التصور الذي ينطبع في الذهن فور التقاطه هذه السلسلة ، وهو بالطبع هنا صورة الثور المذهنية .

والجدير بالذكر ان سوسّور يؤكد على « كيفية » العلاقة التي تربط بين الدال والمدلول (L'arbitraire du signe) اي ان هذه العلاقة غير معللة . فلا يوجد في اي من عناصر الدال « ث ـ و ـ ر » مثلاً ما يدل بشكل طبيعي ومنطقي على المدلول « ثور » (كأن تكون الثاء دليل آكل الأعشاب والواو دليل الحيوان والراء دليل الذنب ، أو الاجترار ، او القرنين ، الخ . . .)[٩] .

وقد عارض بانفنيست (Emile Benvéniste) هذه الفكرة بقوله ان العلاقة بين الدال والمدلول ليست كيفية بل ضرورية . بمعنى انها تفرض نفسها على أي متكلم يرد على ذهنه أحد عنصري الاشارة . والرابط الكيفي موجود في نظره بين الاشارة (التي تتكون من الدال والمدلول) من جهة ، وبين العالم المحسوس (العالم الخارجي) من جهة اخرى .

ولا نريد هنا ان نتوسع في عرض آراء هذين العالمين ، فهذا لا يدخل في ميدان بحثنا ، وانما نكتفي من نظريتيهما بما يتصل بموضوع اللغة والفكر ، فنظرية « كيفية » العلاقة بين الاشارة وبين العالم الخارجي التي ينادي بها بانفنيست تكرس تأثير اللغة الكبير على تطوير الفكر التجريدي عند الانسان . كما انها تؤكد على ضرورة اللغة في تنوير الفكر البشري وحسن عمله . يقول بانفنيست : « لولا معونة الاشارات اللغوية ، لكنا عاجزين أن نميز بين فكرة واخرى بشكل واضح ودائم »[١٠] .

اما نظرية سوسّور في كيفيّة الرابط بين الدال والمدلول فانها تدل على ما للاشارات اللغوية من دور في تنظيم تصورنا الذهني للعالم الخارجي . وهذا بالفعل ما فهمه تلامذة سوسّور واللسانيّون المعاصرون من نظريته هذه . يقول برونكارت : « ان الكيفية الذهنية التي تكلم عنها سوسور تستند بشكل اساسي على التقسيم الذي تدخل به الاشارات في تنظيم انطباعات الانسان الذهنية »[١١] .

وتترسخ هذه النظرية في معظم اتجاهات اللسانية الحديثة ، لا سيما في علم الدلالة (sémantique) الذي يقسم مدلول الاشارة الى وحدات معنوية صغرى تعكس ادراك المتكلم الاجتماعي للشيء الذي تدل عليه[١٢] . ونضرب على ذلك مثل التحليل الدلالي للاشارات اللغوية التالية : « تاكسي » ، « باص » ، « ترام » ، « شاحنة » ، « طائرة ركاب » ، « دراجة » . (علامة + تعني ان الوحدة المعنوية الصغرى توجد في الحقل الدلالي للاشارة ، في حين ان العلامة ـ تدل على فقدانه لها) :

	على الأرض	على سكة	على لنقل دولابين	لأقل من ٥ أشخاص
تاكسي	+	ـ	ـ	+
باص	+	ـ	ـ	+
ترام	+	+	ـ	+
شاحنة	+	ـ	ـ	ـ
طائرة ركاب	ـ	ـ	ـ	+
دراجة	+	ـ	+	+

(٢ ــ ٢) اللسان والكلام

يميز سوسور بين « اللسان » (Langue) و « الكلام » (Parole) فاللسان في رأيه نظام خاص مؤلف من اشارات لغوية يتلقاه الفرد بطريقة سلبية . وهو نتاج اجتماعي واساسي ينظم عملية التكلم لدى كل فرد من افراد المجتمع . ولما كان مشتركا بين جميع اصحاب اللغة الواحدة ، فانه يساعدهم على الاتصال فيما بينهم وعلى فهم بعضهم للبعض الآخر . فاللسان في هذا المنظار مجموع القواعد النحوية والدلالية المخزنة في ذهن كل المتكلمين وهو تنظيم موجود « بالقوة » في دماغ كل منهم[١٣] .

ومن الطبيعي ان يكون اللسان في اصل « الكلام » ومصدر انتاجه . فالكلام بالنسبة لسوسور عو عمل فردي ذهني تدخل فيه ارادة المتكلم ويميّز عن اللسان بكونه عملاً محسوساً ينشط فيه الفرد في ظرف معين ومحدد .

ويتناول شومسكي (Noam Chomsky) اللغة من المنظار ذاته فيميّز بين ما يسميه « الكفاية اللغوية » (Compétence) وبين « الأداء الكلامي » (Performance) . وهذه النظرية تشبه الى حد ما نظرية سوسور في اللسان والكلام . فالكفاية اللغويّة عبارة عن مجموع القواعد الضمنية التي تمثل البنى اللغويّة والتي بواسطتها « يولّد » المتكلم الجمل الكلامية ويفهمها . في حين ان الاداء الكلامي هو عملية استعمال الكفاية اللغويّة في انتاج الجمل الكلامية وتفسيرها في ظروف معينة . والفوارق بين سوسور وشومسكي كثيرة نذكر منها ان منظار الأول اجتماعي في حين انّ منظار الثاني نفسي[١٤] .

وما يسترعي الانتباه في هاتين النظريّتين ان كلتيهما تنظر الى اللغة على انها نشاط فكري تدخل في عناصره المكوّنة عوامل اجتماعية ونفسية وذهنية معقّدة .

(٢ ــ ٣) لغة الانسان ووسائل الاتصال عند الحيوان

٢ ــ ٣ ــ ١ كثيراً ما نستعمل عبارة « الانسان حيوان ناطق » . ولكن كيف يميّز نطق الانسان عن الحيوان ؟ ليس بالمخارج الصوتيّة وحدها . فأعضاء التكلم عند الانسان لا تختصّ بالنطق فقط . فالفم واللسان والحنجرة والرئتان اعضاء يستعملها الانسان في وظائف أخرى ـ غير وظيفة اخراج الاصوات ـ يطلق عليها العلماء اسم « الوظائف الدنيا » . وهي وظائف فيزيولوجية مشتركة بين الانسان والحيوان . علاوة على ذلك اظهرت الأبحاث ان بعض انواع الحيوانات (كالطيور والقردة) تملك اعضاء « دنيا » (الحنجرة ، اللسان ، الخ .) تستطيع ان تخرج بها اصواتاً اشد تنوعاً من اصوات الانسان ، هذا اذا لم تكن مشابهة .

اذا ، لا يدخل العامل الفيزيولوجي في التمييز بين الانسان « الناطق » والحيوان « غير الناطق » . فالفارق اللغوي بينهما ليس في النطق فحسب بل هو في استعمال لغة ذات نظام محدد ومعقد (كما سنرى) .

٢ ــ ٣ ــ ٢ من جهة اخرى ، يتكلم البعض عن « لغة » الحيوانات . نسمع غالباً من يقول « لغة الطيور » ، « لغة الاسماك » ، الخ . وهذا استعمال لا مبرّر له لكلمة « لغة » ، وهو خاطىء في نظر اللسانيين . من هنا انبرى علماء اللسانية لدراسة هذا الموضوع وتمحيص الفوارق بين « لغة الانسان الطبيعية » وبين « وسائل الاتصال عند الحيوان » .

أهم من تكلم من اللسانيين عن هذه الفوارق بانفنيست ومن بعده جورج مونان (Mounin) [١٥] . وقد اعتمدا في ابحاثهما على اكتشافات علماء الطبيعة الذين توصلوا الى معرفة طرق ووسائل الاتصال بين الحيوانات معرفة موضوعيّة ودقيقة . فالغراب مثلاً يملك خمسة عشر صوتاً مختلفاً يدل بواسطتها على مواقف شتى كالخطر ومصدره والطعام ، الخ . . وقد قام فيليب غرامه (P.Gramet) بتسجيل اصوات الغربان وتحليلها ، بغية استعمالها في اخافة هذا النوع من الطيور وابعاده عن المحاصيل[١٦] . والغريب في الأمر ان « غرامه » اكتشف ان الغربان لا تهرب اذا سمعت اصواتاً غريبة عنها او ضجيجاً . فهي لا تلوذ بالفرار الاّ اذا سمعت ـ من بين الاصوات الخمسة عشر التي تستعملها ـ الصوت المخصص للانذار . وقد قام « غرامه » بعدة تجارب مثيرة للاهتمام . منها انه اسمع الغربان بعض اصواتها مسجلة بالعكس ، فلم تحرك الغربان ساكناً . ومنها ايضاً انه اختار مقاطع صغيرة من اصواتها وألف منها « جملة » واحدة بث تسجيلها عليها ، ولم يكن جوابها أحسن هذه المرّة .

ومن اهم التجارب التي جرت على الاتصال بين الحيوان ، تجارب فون فريش (Karl von Frisch) على النحل . فقد اكتشف هذا العالم ان النحلة تستعمل رقصات غاية في الدقة تحمل عدداً لا يستهان به من « المعلومات » تتعلق باتجاه مكان الجني وبعده ونوعه ، الخ[١٧] .

وما يهمنا من هذه التجارب انه بالرغم من وجود « رسائل » تستعملها النحلات العاملات او الغربان وبالرغم من المعلومات الدقيقة التي تحملها هذه الرسائل ، فان بانفنيست ومونان يجزمان بأن وسائل الاتصال هذه ليست لغة بالمعنى اللساني للكلمة . فأسباب التباين بينها وبين لغة الانسان كثيرة نشير هنا الى ما يهمنا منها :

أ ــ ان الحيوان الذي يتلقى « الرسالة » (message) لا يستطيع ان يرد الجواب بالطريقة ذاتها . بل يكتفي بجواب

« سلوكي » (كأن يلوذ بالفرار او يذهب بحثاً عن الطعام) .

ب ـ لا تستطيع النحلة التي تعطي الرسالة (او تلك التي تتلقاها) ان تحتفظ بها في ذاكرتها او ان تكرر القاءها بعد حين . لذلك يبدو ان رسالة الحيوان عبارة عن سلوك معين تمليه عليه احاسيسه (الشم ، النظر . . .) تجاه وضع معين .

د ـ ليس للرسالة عند الحيوان أي صفة تجريدية .

هـ ـ يبدو ان وسائل الاتصال بين الحيوان ثابتة لا تقبل التطور ولا التغير .

و ـ الرسالة الواحدة مؤلفة من عنصر واحد لا سبيل الى تحليله الى اجزاء صغرى يمكن استعمالها في عدة رسائل مختلفة .

هذه ميّزات تنفي صفة « اللغة » عن وسائل الاتصال بين الحيوانات . ذلك لأن لغة الانسان الطبيعية[١٨] تمتاز بانبنائها المزدوج double articulation . فهي ـ كما يقول اندره مارتينه ـ نظام يتجزأ في انبناءين متكاملين الى وحدات معنوية صغرى monènes (وهي اصغر الاشارات اللغوية التي تتألف من دال ومدلول) والى وحدات صوتية صغرى phonènes (وهي اصغر الوحدات المميزة للدال)[١٩] .

٢ ـ ٣ ـ ٣ ليس للحيوان اذن لغة بالمعنى الصحيح للكلمة . فهو يملك اداة اتصال يستعين بواسطتها على ارسال معلومات محدودة الى بني جنسه . ولكن ما بال الحيوان الذي يتلقن لغة « بشرية » و « يتكلم » بها ؟ في الواقع هناك نوعان من التعلم عند الحيوان . فإما ان يكرر الحيوان ـ كالببغاء ـ كلمات او عبارات دون ان يفقه معناها . وتنتفي عن هذه الكلمات صفة اللغة لأنها لا تعبر عن نية اتصال ولا يطلب قائلها من السامع اتخاذ موقف معين . وإما ان يتعلم الحيوان بعض المفردات ويستعملها . وقد اثبتت التجارب ان الشمبانزي مثلاً يستطيع ان يتعلم مئة كلمة تقريبا وان يستعملها في ظروف معينة . ومهما يكن من أمر هذه التجارب ومدى نجاحها ، فان النقطة التي يجب ألاّ ننساها هي ان أياً من الحيوانات غير قادر على ان يتخطى مرحلة تسمية الأشياء (هذا اذا استطاع ذلك) ، وهي مرحلة من اقل مراحل اللغة تعقيداً[٢٠] .

٢ ـ ٣ ـ ٤ ولكن ما الذي يمتاز به الانسان حتى تفوق وسائل الاتصال والتبادل عنده ـ اي اللغة ـ وسائل الاتصال عند سائر المخلوقات ؟ الجواب على هذا السؤال يكمن في التمييز بين نوعين من السلوك : السلوك المادي او المحسوس (comportement concret) والسلوك الذهني او الفكري (comportement conceptuel) . يعطي غولدشتاين (Goldstein) المثال التالي :نستطيع ان نعلم حيواناً ما ان يشعل النور في الغرفة اذا كانت مظلمة ، وهذا سلوك محسوس . ولكن هل يستطيع هذا الحيوان ان يمتنع عن اضاءتها اذا كان فيها شخص نائم ؟ اذا كان الجواب نعم ، فان صفة الحيوانية تنتفي عنه ويصبح كائناً يفكر . فالسلوك المحسوس خاصة يشترك فيه الانسان والحيوان . أما السلوك الذهني فهو سلوك رمزي مجرد يتميز به الانسان واليه يعود الفضل في تلقن اللغة واستعمالها[٢١] .

(٢ ـ ٤) لقد حاولنا قدر الامكان ألاّ نسهب في شرح نظريات اللسانية ، فاكتفينا بالقاء نظرة اردناها سريعة على مختلف خصائص اللغة كما يراها أصحاب هذا العلم ، هادفين في ذلك الى إضفاء أضواء جديدة على مفاهيم اللغة وعلاقاتها بالفكر . وخلاصة القول أن إسهام علم اللسانية في هذا المضمار ينحصر في الامور التالية :

أ ـ اللغة اداة تبادل واتصال تتألف من وحدات معنوية صغرى ومن وحدات صوتية صغرى . وهي في هذا المعنى تخصّ الانسان وحده دون سائر المخلوقات .

ب ـ ينبري عمل اللغة في السلوك الرمزي والتجريدي عند الانسان . وهو سلوك لا يتم الا بوجود الفكر .

ج ـ اللغة بمختلف وجوهها ـ أإشارة ذات وجهين كانت ام لساناً وكلاماً ـ هي ترجمة لنشاط الفكر وعمل الذهن . فهي بالتالي لا توجد الا بوجود الذهن ولا تعمل الا بعمله .

وصفوة القول ان الكلام ملكة ينعم بها الانسان دون سائر المخلوقات وهو ترجمة لنظام معقد يشف عن قدرة ترميزيّة رفيعة . وهو نظام يسمح انبناؤه المزدوج للفكر البشري ان ينتج عدداً لا نهاية له من الجمل وان يفهم جملاً لم يرها ولم يسمعها من قبل . كما ان اللغة بفضل العلاقة الكيفية بين الدال والمدلول وبين الاشارة والشيء المشار اليه ، تفتح للفكر التجريدي وللمخيلة باباً كبيراً ومرتعاً رحباً .

٣ ـ « الفكرة اللسانية »

بعد ان تبيّنّ لنا ان اللغة والفكر نشاطان بشريّان يتداخل عمل كل منهما في عمل الآخر ويؤثر فيه تأثيراً مباشراً ، نعود الى سؤالنا الذي انطلقنا منه عن نوعية هذا التأثر وعن أهمية الصلة التي تربط بين هذين النشاطين . والجواب على هذا السؤال لا بد وان يسبقه تحديدٌ لمدلولات الفكر على ضوء ما رأينا من وظائف اللغة .

فالمفهوم الفلسفي الشائع للفظة الفكر يضم كل الظواهر الذهنية والنفسية والعاطفية التي تميز الانسان عن الحيوان : « كل ما نعيشه ونحسه ونفهمه يؤلف فكرنا : الخيال ، العاطفة ، المعرفة ، الرأي ، النية »[٢٢] . فالفكر في هذا المعنى هو كل ما يحرر الانسان من قيود الاحساسات الآنية ويمنحه المقدرة على التعميم والتجريد (généralisation et

abstraction) فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان الفكر يمثل جهدا او اخفاقاً في عملية التواصل ـ مهما كان المستوى الذي يعمل فيه [٢٣] ، لأصبحت اللغة جزءاً لا يتجزأ من عمل الفكر . فاللغة لا يقف عملها على مساعدة النفس الانسانية على الخروج من قيود الوظائف الدنيا او على منحها الأداة التي لا بد منها للاتصال والتخاطب ، بل هي اهم مظاهر الفكر البشري الذي يسمو بواسطتها الى التعميم والتجريد . لذا يقول علماء النفس ان « وظيفة الفكر لا تكمن في المعرفة فقط ، بل كذلك في تنظيم **الشيء المعلوم** وفي تنظيم عالم الظواهر » . انطلاقاً من وظيفة الفكر هذه التي تكوّن وظيفة اللغة في الوقت نفسه كما رأينا ، نستطيع ان نؤكد ان عملية تنظيم العالم الخارجي « تعني بوضوح ان الفكر ليس علة ولا جوهراً ، بل هو المكان الذي تبنى فيه اللغة ـ اللغة التي تولّد المعقولية (intelligibilité) او تهدمها » [٢٤] . وهكذا فان الفكر البشري هو اتحاد عمل الذهن وعمل اللغة اتحاداً كاملاً ، فلا يوجد الأول الا بوجود الثاني ـ أكانت العلامات اللسانية مضمرة أم منطوقة .

ثنائية الفكر واللغة اذن امر غير معقول . فالفكر الصافي المجرد ضرب من الاوهام . ذلك لأن تفكير الانسان مرتبط عضوياً باللغة (كنظام مؤلف من علامات رمزية) ، والفكرة لا بد من ان تكون « لسانية » . ولكن ، هل يعني هذا ان اللغة والفكر متماثلان متطابقان ؟ وهل الفكر (او التفكير) خاضع للغة ؟ ان عمل اللغة والفكر في نهج موحّد لا يعني ان احدهما يذوب في الآخر ويفقد هويته . فاتحاد عمل الفكر واستعمال اللغة اتحاد عناصر مختلفة في تكوينها جمع شملها تطور نفسي واجتماعي معقد . ثم ان فكر الانسان لا يلتصق في عمله بالقواعد اللغوية بشكل حرفي ، بل يقوم ، كما يقول « شاف » ، بقفزات تتماشى مع ما تتسم به العمليات الذهنية من شمولية [٢٥] . من ناحية اخرى ، يخضع تفكير المرء للسان الذي تعلمه منذ صغره ويستعمله . يقول سيشيهاي (Albert Sechehaye) ان الفكر مرتبط باللغة التي هي اطاره المتين ، وهذا نوع من العبودية [٢٦] . كما يقول بارت ان اللغة تشريع واللسان قانون هذا التشريع . ولا يعرّف اللسانُ بما يسمح به ان يقال بل بما يجبرنا على قوله . فهو « فاشي » بكل ما في الكلمة من معنى ، لأن الفاشية ليست في ان نمنع احداً عن التكلم ، بل في اجباره عليه . ولكن الفكر البشري لا يذعن لسلطة اللغة وسيطرتها ، وما الكتابة الأدبية (وخاصة الكتابة الشعرية) الا محاولة لكسر طوق اللغة وبنائها المتين .

المراجع والهوامش

١ ـ Jean Piaget, **Cahiers Vilfredo Pareto,** Genève, Droz, 1966, No 10, p. 139.

٢ ـ J. Piaget, **Le Langage et la pensée chez l'enfant,** Neuchatel, Delachaux and Niestlé, 1923, P. 18.

٣ ـ Cf. Adam Schaff, **Langage et connaissance,** Paris, Anthropos, coll. Points, pp. 135–196.

٤ ـ Friedrich Kainz **Psychologie der Sprache,** Bd. 2, Stuttgart, 1960, pp. 149–156.

٥ ـ Michel Tournier **Vendredi ou les limbes du Pacifique,** Paris Gallimard, Folio , pp 67–68.

٦ ـ L. Arnould, **Ames en prison,** Paris, 1934, cité par A. Schaff, op. cit.

٧ ـ Cf. A. Schaff, op. cit., p. 144.

٨ ـ B. – L. Whorf, Science and linguistics , in **Language,** Tought and Reality, p. 213.

٩ ـ Ferdinand de Saussure, **Cours de Linguistique Générale,** Paris, Payot, 1979, pp. 97–103.

١٠ ـ Emile Benvéniste, **Nature du signe linguistique ,** in **Eléments de linguistique générale,** Paris, Gallimard, 1966, tome I, pp. 51–55.

١١ ـ Jean Paul Bronckart, **Théories du langage,** Bruxelles, P. Mardaga, 1977 – 299.

١٢ ـ لا بد من التنويه هنا ان علم الدلالة لا يصبو الى برهنة اثر اللغة على الادراك النفسي او الى المقارنة بين الوحدات المعنوية الصغرى واجزاء العالم الخارجي . بل هو يكتفي بتحليل المعاني (الدلالات) فقط وينفي ان تكون علاقة اللغة بالعالم الخارجي او بالفكر من ميدان ابحاثه .

١٣ ـ انظر ميشال زكريا **الالسنية مبادئها واعلامها** ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

١٤ ـ انظر المصدر السابق ص ٢٦١ ومادتي Compétence و Performance من المعجم Dubois and Collaborateurs, **Dictionnaire de Linguistique,** Paris, Larousse, 1973.

١٥ ـ Georges Mounin Communication Linguistique humaine et communication non linguistique animale , in **Introduction a la sémiologie,** Paris, Ed. de Minuit, 1970, pp 41–56.

١٦ ـ Philippe Gramet, Recherches acoustiques sur les corbeaux , in **La Nature,** février 1959, pp 49–55.

١٧ ـ لمزيد من الاطلاع انظر مقالتي « بانفنيست » و « مونان » وانظر Karl Von Frisch **Vie et moeurs des abeilles,** traduit de l'allemand par A. Dalcq, Paris, A. Michel, 1955

١٨ ـ يقصد بعبارة « لغة الانسان الطبيعية » Langue naturelle humaine ، اللغة التي لم يصنعها الانسان واعياً والتي يتلقنها من المجتمع الذي ولد فيه وترعرع . فالعربية والفرنسية مثلاً لغتان طبيعيتان في حين ان « المورس » morse و « الاسبرانتو » espéranto لغتان اصطناعيتان غير طبيعيتين .

١٩ ـ Cf. A. Martinet , **Eléments de linguistique générale,** Paris, A. Colin. 1960.

٢٠ ـ لمزيد من الاطلاع انظر نايف خرما ، **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة** ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٩ ، ص ١٨١ ـ ١٩٠ .

٢١ ـ Kurt Goldstein, **Langage and language disturbances,** New York. 1948. cité par A. Schaff, op. cit. pp 160– 170.

٢٢ ـ Collectif, **La Psychologie moderne de A a Z ,** article Pensée , Bibliothèque C. E. P. L.

٢٣ ـ المصدر نفسه

٢٤ ـ Encyclopaedia Universalis, article pensée

٢٥ ـ A. Schaff, op. cit. , p. 177.

٢٦ ـ Albert Sechehaye, La pensée et la language ou comment concevoir le rapport organique de l'individuel et du social dans le langage ?in **Essais sur le langage,** Paris Editions de Minuit. pp. 71– 96.